مقدمة

كان لحركة الترجمة العربية خلال حقبة المد الإسلامي بالغ الأثر في إحداث تحول كبير في بنية الثقافة العربية على خلاف ما نجده في حركة الترجمة المعاصرة ممارسة وتنظيرًا.

وهذا أمر يحتاج وصفًا دقيقًا وتفصيلًا.

والملاحظ أن المترجمين العرب لم يقدموا معنى النص الأعجمي بل تجاوزوا ذلك إلى مرحلة النقد والإبداع. وعليه فإن حركة الترجمة لم تكن تسعى إلى إنتاج نصوص مكافئة وحسب؛ بل كانت الترجمة أحد روافد إنتاج المعرفة الرئيسة والإسهام في صناعتها. وفي هذا يقول أوي فاجلبول (Uwe Vagelpohl):

> «النصوص التي قدمتها حركة الترجمة اليونانية العربية هي *وقائع أدبية مستقلة*؛ إذ تستند إلى أصول يونانية أو سريانية أو كليهما معا، بيد أنها تطرح حججًا وتقدم إسهامًا يختلف عما تحت أيدينا من نصوص جُمعت بعناية وشُرِّحت بدقة ومُحِّصَتْ تمحيصًا»[1].

سنّ المترجمون العرب سُنَّة حسنة. إذ كانوا ينقدون ما يترجمون، فسجلوا حواشي بها فكر جديد. وفيما بعد نهض العلماء المسلمون على تقديم أدبيات مبتكرة لهذه التراجم. وقد أحدث ذلك نقلة نوعية في نسيج اللغة العربية إذ أصبحت أداة التعبير

---

(1) التأكيد في النص الأصلي.

Uwe Vagelpohl, *Aristotle's Rhetoric in the East: The Syriac and Arabic translation and commentary tradition* (Brill, 2008), 209.

المثلى في الكتابات الفلسفية والعلمية. وعمليًّا، تفوقت بعض المصطلحات المترجمة في «دقتها على نظيرتها في النصوص اليونانية الأصلية»؛ وعليه أصبحت نموذجًا تحذو اللغات الغربية حذوه بعد أن ترجمت تلك لاحقًا إلى اللاتينية[1]. وفضلًا عن ذلك التحول الذي شهده نسيج العربية، أسفر هذا المنهج العربي في الترجمة عن استحداث تخصصات جديدة تماما مثل الفلسفة الإسلامية.

وكان من نتائج النظرة النابعة من منظور فقه اللغة، التي لم تظهر في أوروبا إلا مؤخرا، كنموذج لتحليل الترجمة العربية وتقييمها، أن اختزلت حركة الترجمة اليونانية العربية في كونها مجرد وعاء لحفظ المعرفة اليونانية حتى أعادت أوروبا اكتشافها؛ أي لم يكن للمترجم العربي أي دور في تطوير العلوم اليونانية بل كان أقرب إلى الحمار يحمل أسفارا.

وهذه قصة مجتزأة لرحلة الترجمة العربية، التي يحاول هذا الكتاب أن يحكيها كاملة. وعليه يجب أن يبدأ الوصف الصحيح لحركة الترجمة اليونانية العربية بتقديم تعريف جامع لماهية الترجمة؛ إذ إن التعريفات التقليدية ليست جامعة بدرجة تضمن دخول تاريخ الترجمة العربية تحت مظلتها.

نحو تعريف جديد للترجمة

يشير الاستعراض السريع للنظرية الأوروبية للترجمة إلى تركيز ضيق على النهجين اللذين وصفهما شيشرون (Cicero) (106-43 قبل الميلاد): كلمة مقابل كلمة (word-for-word)، مقارنةً بمعنى مقابل معنى (sense-for-sense). وبعد أكثر من سبعة عشر قرنا، عندما كتب تايتلر (Tytler)«On the Principles of Translation» (مقالة في مبادئ الترجمة)، أعاد تقديم هذين النهجين فوصف الترجمة الجيدة وفقًا لهما[2]. وبعد بضعة قرون أو بالتحديد في ستينيات القرن العشرين، أعادت نظريات الترجمة ذات التوجه اللغوي تقديم هذين النهجين. إذ يميز يوجين نيدا (Eugene Nida) بين التكافؤ الشكلي، «مطابقة رسالة اللغة المُستقبِلة لرسالة اللغة الأصلية»؛ والتكافؤ الديناميكي،

(1) يتطلب هذا الجانب بحثا منفصلا. انظر:

Vagelpohl, *Aristotle's Rhetoric in the East: The Syriac and Arabic translation and commentary tradition*, 12.

(2) Alexander Fraser Tytler, *On the Priciples of Translation* (Everyman’s Library, 1791).

مطابقة «العلاقة بين المتلقي والرسالة [مع]... تلك الموجودة بين المتلقي الأصلي والرسالة»[1]. ويحاجّ نيدا بأن الترجمة الأمينة ليست الترجمة الحرفية التي تمنح امتيازًا للشكل ولكنها الترجمة التي تنقل المعنى الكامل للنص الأصلي بأسلوب مُرضٍ.

ثم جاء جون كاتفورد (John Catford) وبنى نظريته عن التكافؤ الشكلي والنص معتمدًا على النظرية اللغوية لهاليداي (Halliday) (1961)، التي كانت نسخة مبكرة من القواعد النحوية الوظيفية النظامية[2]. وفي عام 1988، ميَّز بيتر نيومارك (Peter Newmark) بين الترجمة الدلالية والترجمة التواصلية ودافع عن الأخيرة، حيث عرَّف الترجمة بأنها «تحويل معنى النص من لغة إلى أخرى حسب ما أراد المؤلف»[3].

وفي ألمانيا، ظهرت نظرية سكوبوس (الغرض) (Skopos Theory) التي أضحت أكثر الـنُّهج الوظيفية أثرا في الترجمة[4]. وتُقيّم تلك النظرية الترجمة من خلال الغرض منها، مثلها مثل أي نشاط بشري. ونظرًا لأن الغرض من الترجمة يحدده العميل -أو الجهة التي تريد ترجمة النص- فإنه يحدد الشكل الذي يجب أن تكون عليه الترجمة. فما تقوله الترجمة، إذن، لا يعتمد على شكل أو محتوى النص الأجنبي بقدر ما يعتمد على الوظيفة التي ستقوم بها الترجمة في الثقافة المنقولة إليها، على النحو الذي يحدده العميل سواء أكان فردًا أم مؤسسة[5].

---

(1) Eugene A. Nida, *Toward a Science of Translating: With Special Reference to Principles and Procedures Involved in Bible Translating* (Leiden: Brill, 1964), 159.

(2) John Catford, *A Linguistic Theory of Translation* (Oxford: Oxford University Press, 1965).

انظر أيضًا:

M.A.K. Halliday, “Categories of the Theory of Grammar,” *Word* 17, no. 3 (1961).

(3) Peter Newmark, *A Textbook of Translation* (New York: Prentice-Hall International, 1988), 5.

(4) وضع هذه النظرية هانز فيرمير Hans Vermeer وكاثرينا رايس Katharina Reiß وآخرون. انظر:

Reiß Katharina and Hans Vermeer, *Towards a General Theory of Translational Action: Skopos Theory Explained*, trans. Christiane Nord (Routledge, 2014).

(5) لاستعراض النظرية، انظر:

Kirsten Malmkjær, *Linguistics and the Language of Translation* (Edinburgh University Press, 2005).

أما في أمريكا الشمالية، فما فتئ مفهوم التكافؤ؛ وثنائي الترجمة المعهود كلمة مقابل كلمة من جهة، ومعنى مقابل معنى من جهة أخرى يسيطران على المشهد التنظيري. ففي عام 1953، نشر آي. إيه. ريتشاردز (I. A. Richards) مقاله «Towards a Theory of Translation» (نحو نظرية للترجمة)، قدم فيه نموذجًا معقدا لكيفية مقارنة الترجمات بالنصوص الأصلية، مع الأخذ في الاعتبار المعنى الكامل للنص، بما في ذلك درجات متفاوتة من الوضوح، والتقييمات، والتأثير، والروابط، وأسباب الإقناع[1]. وخلافا لنظرية ريتشاردز للترجمة، التي تركز على المعنى الكامل للنص، تركز نظرية إزرا باوند (Ezra Pound) في الترجمة على تقديم التفاصيل بدقة. لا يركز باوند كثيرا على المعنى مقارنةً بتركيزه على الإيقاع والقافية والإلقاء والروابط والأصوات داخل الكلمات وما إلى ذلك. وبالمثل، يركز فريدريك ويل (Frederic Will) على الانطباع الذي يمكن أن تتركه الترجمة على القارئ. إذ يحكم على ترجمات قصائد جيولا إيليس (Gyula Illyés) من المجرية إلى الإنكليزية بالرداءة لا لشيء إلا لأنها لا تشبه الشعر الإنكليزي[2].

ومع ذلك، فإن الإسهام الأكثر أثرًا لأمريكا الشمالية في نظرية الترجمة هي نقد لورانس فينوتي (Lawrence Venuti) لاختفاء المترجم (the translator's invisibility). ويغدو المترجم مختفيًا عندما يقدم ترجمة تعلي من قيمة النص الأصلي على حساب النص المترجم. ولتفسير هذين النوعين من الترجمة، أي، النوع الذي يبدو أصيلًا والآخر الذي يبدو دخيلا، يقدم فينوتي مصطلحي «التقريب والتغريب» (domestication versus foreignization). يشير الأول إلى مثاقفة الترجمة (acculturation) في الأعراف النصية للجمهور الجديد بحيث يمكن لقارئ النص المترجم أن يتلقى الترجمة كعمل أصيل. وفي المقابل، تشير الترجمة التغريبية إلى الترجمة التي يشعر فيها القارئ بكل غرابة ثقافة النص الأجنبي وغموضها[3]. ويرى فينوتي أن الترجمة ينبغي أن تكون تغريبية لأنها تمثل لنص

(1) I.A. Richards, "Toward a Theory of Translating," in *Studies in Chinese Thought*, ed. Arthur F. Wright (University of Chicago Press: Chicago, 1953).

(2) Edwin Gentzler, *Contemporary Translation Theories* (Multilingual Matters, 2001).

(3) Lawrence Venuti, *The Translator's Invisibility: A History of Translation* (Routledge, 2008).

هو نتاج سياق اجتماعي ثقافي فريد وغير قابل للتكرار، والأهم من ذلك أنه يمثل واقعًا يُنظر إليه بشكل مختلف. وعلاوة على ذلك، فإن عملية إنتاج نص مترجَم يُقرأ بسلاسة في الثقافة المُستقبِلة تهمش الترجمة وتجعلها ثانوية بالنسبة للكتابة الإبداعية[1].

وفي عام 1980، دعا كتاب «In Search for a Theory of Translation» (بحثًا عن نظرية للترجمة) لجدعون توري (Gideon Toury) إلى نظرية موجهة للثقافة «المستهدفة» تتيح منظورًا أوسع للترجمة[2]. يحاجّ توري بأن تفضيل علاقة تكافؤ على أخرى يمكن تفسيره في ضوء أعراف الترجمة التي هي «مبادئ توجيهية بشأن طرائق الترجمة المناسبة التي يمكن تنفيذها في مواقف معينة، من خلالها تحد حدودًا وتفرض فروضًا وتفصح عما هو مسموح به أو يمكن التغاضي عنه في سياق مسالك بعينها يسلكها المترجم»[3]. وهي تحتل موقعًا وسطًا بين القواعد اللغوية الصرفة والتفضيلات الأسلوبية البحتة، وتتراوح على طول متسلسلة قياس ما بين الأقوى والأضعف. وتكتسب هذه المعايير وتُـطبَّق، بل وتغدو سنة متبعة عبر عملية التنشئة الاجتماعية من خلال العقاب والثواب بغية إنفاذ القواعد والامتثال لها. ومن ثم فهي مرجعية تُقيّم على أساسها النصوص المترجمة. وفي الوقت نفسه، لا توجه هذه المعايير اختيار المترجم لعلاقة مكافئة فحسب، بل تتحكم أيضًا في كل جانب من جوانب الترجمة، من اختيار نوع النص إلى اختيار لفظ معجمي في النص المترجم.

يشير هذا الاستعراض لنظرية الترجمة إلى أن الانقسام بين الترجمة كلمة مقابل كلمة ومعنى مقابل معنى يصاحبه انقسام آخر أكثر خطورة، هو الانقسام بين النص الأجنبي والنص المترجم. ويتضح هذا إذا قمنا بفحص بعض تعريفات الترجمة:

---

(1) Lawrence Venuti, *The Scandals of Translation: Towards an Ethics of Difference* (Routledge, 1998).

(2) Gideon Toury, *In search of a theory of translation* (Porter Institute for Poetics and Semiotics, Tel Aviv University, 1980).

(3) Gideon Toury, "Translated literature: System, norm performance: Toward a TT-oriented approach to literary translation," *Poetics Today* 2, no. 4 (1981): 55.

- «استبدال مادة نصية في لغة واحدة (اللغة المصدر SL) بمادة نصية مكافئة في لغة أخرى (اللغة الهدف TL)»[1].
- «إعادة إنتاج أقرب مكافئ طبيعي لرسالة اللغة المصدر في اللغة المُستقبِلة، أولا من حيث المعنى وثانيا من حيث الأسلوب»[2].
- «تحويل معنى النص إلى لغة أخرى بالطريقة التي أراد بها المؤلف النص»[3].
- «حدث تواصلي ثانوي»[4].
- «فعل تواصل يحاول نقل فعل تواصل آخر عبر الحدود الثقافية واللغوية»[5].
- «نشاط لمعالجة واستنساخ النص يقود من نص مصدر إلى نص ناتج»[6].

في كل هذه التعريفات نصان، وثقافتان، ولغتان، وبيئتان، ومجموعتان من المعايير، إلخ، مع حدود يجب على المترجم عبورها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن النص الهدف هو النتيجة النهائية المثالية التي يهدف إليها المترجم. وعلى هذا النحو، فهو فكرة مثالية أو وهم موجود فقط من الناحية النظرية وليس في الواقع[7]. يقول لورانس فينوتي:

> لا يمكن فهم أي من العلاقات التفسيرية التي أقامتها الترجمة على أنها إعادة تقديم النص الأصلي دون تغيير.. أو تمكين القارئ من الاستجابة للترجمة بالطريقة نفسها التي قد يستجيب بها قارئ النص الأصلي. إن النص عبارة عن أداة معقدة تدعم المعاني والقيم والوظائف الخاصة

---

(1) Catford, *A Linguistic Theory of Translation*, 20.

(2) Eugene Nida and Charles Taber, *The Theory and Practice of Translation* (Leiden: Brill, 1969), 12.

(3) Newmark, *A Textbook of Translation*, 5.

(4) Juliane House, *Translation as Communication across Languages and Cultures* (Routledge, 2016), 5.

(5) Basil Hatim, *Communication across Cultures* (Exeter: University of Exeter Press, 1997), 1.

(6) House, *Translation as Communication across Languages and Cultures*, 9.

(7) «انكسار» refraction، كما يسميه أندريه ليفيڤير [André Lefevere].

André Lefevere, "Mother Courage's Cucumbers: Text, System and Refraction in a Theory of Literature," *Modern Language Studies* 12, no. 4 (1982): 7.

بلغته وثقافته الأصيلة، وعند ترجمته ينزاح هذا التعقيد عن طريق صياغة نص آخر يأتي للحفاظ على المعاني والقيم والوظائف الخاصة بلغة وثقافة مختلفتين. ومن ثم، فإن أي توافق أو تقارب في الترجمة يصادفه تحول جذري[1].

ما نبحث عنه إذن هو شيء ما بين النص الأصلي والنص المترجم المثالي.

من خلال استعراض تاريخ ترجمة العلوم في التقاليد الرومانية والسريانية والهندية والبهلوية والعربية في عالم ما قبل الحداثة، يعرِّف سكوت مونتغمري (Scott Montgomery) الترجمة بأنها «عملية تحويل جزء معين من لغة واحدة (عادةً نص من نوع ما) إلى لغة أخرى»[2]. هناك كلمتان مهمتان في هذا التعريف: «عملية» و«تحويل». تشير كلمة «عملية» إلى نشاط مستمر، ولذا فإن مخرج الترجمة نص مؤقت، ومرن، وفي حركة مستمرة. وتشير كلمة «تحويل» إلى عملية معقدة يسميها هومي بهابها « Homi Bhabha» «التهجين الثقافي» «cultural hybridity». ولهذا التهجين الثقافي سمتان. أولًا، الترجمة ليست نسخة من النص الأصلي؛ فهي تجمع بين معرفة النص الأصلي ومعرفة الثقافة المنقول إليها. ثانيًا، يختلف النص الأصلي عن ترجمته «بدون تسلسل هرمي مفترض أو مفروض»[3]. وينطبق هذا على الترجمة العربية في حقبة المد الإسلامي. كانت الترجمات العربية تهجينًا ثقافيًا لأن المترجمين أضافوا فكرًا جديدًا إلى ترجماتهم، ولأنهم، بخلاف المترجمين الرومان الذين رأوا النصوص اليونانية روائع يجب تقليدها، رأوا لغتهم مساوية للغة اليونانية وقادرة على التعبير عن الأفكار العلمية. لم يقلدوا النصوص اليونانية أو يستبدلوها. لقد اعترفوا بها، ولكنهم صححوها ونقحوها.

يطرح هذا الكتاب فكرة مفادها أن الترجمة العربية للنصوص لليونانية كانت مختلفة

(1) Lawrence Venuti, *Contra Instrumentalism: A Translation Polemic* (University of Nebraska Press, 2019), 2-3.

(2) Scott Montgomery, *Science in Translation: Movements of Knowledge Through Cultures and Time* (University of Chicago Press, 2000), 4.

(3) Homi K. Bhabha, *The Location of Culture* (Routledge, 1994), 4.

تمامًا في جوهرها عن طرائق الترجمة المعاصرة. ويعرِّف الكتاب الترجمة بأنها عملية دمج؛ أي عملية إعادة صياغة للمعنى تدمج واقعًا متعددًا. لم يقدم المترجم العربي مكافئًا للنص الأعجمي فحسب، بل دمج معناه مع اللغة والثقافة العربية والسياق الاجتماعي والسياسي. بالإضافة إلى ذلك، قدم المترجم العربي مزيجًا من المعرفة التي يقدمها النص الأعجمي وما لديه من معارف وخبرات خاصة. ومن ثم، كانت ترجمة نص ما بمثابة إضافة فكر جديد إليه.

ولتمييز النص الأعجمي عن الإسهام العربي، كانت الإضافات العربية تُكتب بحبر مختلف أو أكثر كثافة، وتقديمه في أقسام منفصلة، أو استهلاله بفعل القول مثل (قال حنين بن إسحاق). إن إضافة فقرات وأفكار أصيلة تضمن أقصى قدر من التفاعل النقدي والإبداعي مع النص الأعجمي وتضع الترجمة على قدم المساواة مع الكتابة.

ومع ذلك، فإن الترجمة كعملية دمج لا تفسر بشكل كامل نجاح حركة الترجمة اليونانية العربية. إذ تترافق هذه السمة مع أخرى أسميها «دوامة الأثر» (spiral of influence). تفسر دوامة الأثر كيف أثرت حركة الترجمة في اللغة العربية وجعلت منها لغة العلوم والمعارف. على سبيل المثال، عند تقديم مصطلح من خلال الترجمة، فإنه يطفو على سطح الدوامة. أي أنه بمجرد تقديم المصطلح، يبدأ مزيد من العلماء، ثم مزيد من الجماهير، في استخدامه. وهكذا يغدو جزءًا من اللغة والثقافة والحياة اليومية العربية.

مثل هذه الحركة التصاعدية تعتمد على بيئة يمكن فيها لمزيد من العلماء ومزيد من أفراد الجمهور التفاعل مع العلوم. لو لم يكن الأمر كذلك، لكان من الصعب أن يصير المصطلح شائع الاستخدام. كان من المحتمل أن يقتصر على خطاب النخبة أو يتلاشى تماما. كان من الممكن أيضًا أن ينتقل المصطلح بعد تقديمه إلى أسفل الدوامة؛ لأنه لم يكن مثاليًّا بدرجة كافية، وفي هذه الحالة يأتي المترجمون بمصطلح جديد. تفسر دوامة الأثر أيضًا فشل الترجمة في العالم العربي المعاصر، حيث إن حركتها التصاعدية بطيئة جدًّا نظرًا لارتفاع مستوى الأمية.

المراحل الأساسية في تاريخ الترجمة العربية

لا يدعي هذا الكتاب أنه تاريخ كامل للترجمة العربية، بالنظر إلى التاريخ الطويل للترجمة العربية واتساع النطاق الجغرافي التي ترعرعت فيه. بل يحاول تحليل المراحل الأساسية في الترجمة في العالم العربي، ومقارنتها من وقت لآخر بالنظرية والتطبيق الأوروبيين. وفي محاولة للإجابة على السؤال الرئيس بشأن مدى اختلاف الترجمة العربية زمن المد الإسلامي عن النظرية والتطبيق الأوروبيين المعاصرين، يتناول الكتاب الترجمة العربية من القرن الثامن إلى منتصف القرن العاشر، ويسلط الضوء على استخدام الترجمة كأداة لإنتاج المعرفة، ويوضح كيف تفاعل المترجمون العرب بشكل إبداعي مع نصوصهم الأعجمية وأضافوا إليها أفكارًا جديدة. وعندما انتقلت حركة الترجمة إلى أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تأثر المترجم الأوروبي تأثرًا كبيرًا بالممارسات العربية السابقة، لكنها سرعان ما تلاشت أمام تقاليد أقوى مثل التقاليد الرومانية والكهنوتية.

وفي أوائل القرن التاسع عشر، عندما قامت حركة ترجمة علمية قوية في القاهرة في ظل حكم محمد علي باشا، تميزت الترجمة العربية بسمات كل من الترجمة العربية زمن المد الإسلامي والترجمة الأوروبية الحديثة. إذ تفاعل المترجمون العرب في مصر، مثل المترجمين العباسيين قبلهم، بشكل إبداعي مع النصوص الأعجمية، ولكنهم، مثلهم مثل المترجمين الأوروبيين، أعطوا الأولوية للفصاحة والأسلوب البلاغي. ثم كانت هناك في مصر وسوريا ولبنان حركة ترجمة أدبية في منتصف القرن التاسع عشر، حيث بدا خلالها أن الترجمة العربية قد قطعت علاقاتها مع عصور إرث السلف وتأثّرت بشكل كامل بنظرية الترجمة الأوروبية الحديثة وممارستها.

تتضمن المقارنة التي قدمها هذا الكتاب بين الترجمة في حقبة المد الإسلامي وبين الممارسة الحديثة للترجمة مقارنة بين نهجين إزاء التاريخ. تقليديا، يميل التاريخ إلى النظر إلى تأثير الرجال العظماء الذين كان لهم تأثير واضح على كيفية تطور الأحداث التاريخية. وتاريخ الترجمة زمن المد الإسلامي هو تاريخ العلماء البارزين الذين

أثَّروا في تقدم العلم. ومن ثَمَّ فإن أي تاريخ للعلوم يتضمن أسماءهم ومساهماتهم الفكرية. ولم يكن المترجمون في ذلك الوقت مجرد ناقلين للمعنى؛ كانوا أيضا معلمين ومبدعين، وكان لا غنى عن عملهم لتحقيق التقدم العلمي الكبير الذي أُحرز في ذلك الوقت. إن المترجمين المعاصرين، ربما باستثناء عدد قليل من المترجمين الأدبيين، هم «أشخاص عاديون» يسهمون بصمت في تقدم المعرفة، وأغلب الظن أنه لن يُشار إليهم بالبنان كرجال علم وأدب. تاريخ الترجمة الحديثة، إذن، هو تاريخ الشعوب أو هو تاريخ من القاع إلى القمة.

ولتحليل تاريخ الترجمة في العالم العربي، يجمع الكتاب بين الدراسة اللغوية للنصوص المترجمة والتحليلات التاريخية والاجتماعية السياسية للمراكز الثقافية التي أنتجت هذه النصوص. على وجه الخصوص، يتوسل الكتاب بثلاثة مصادر لرسم خريطة للترجمة العربية زمن المد الإسلامي. المصدر الأول هو الترجمات نفسها. في هذه النصوص، أبحث عن الخصائص المشتركة التي تشترك فيها الترجمات المختلفة. والمصدر الثاني هو توصيفات وتعليقات حول الترجمة لمترجمين ومفكرين عرب في زمن المد الإسلامي. وهذه العبارات قليلة جدا وعامة جدا بحيث لا تتمخض عن نظرية متسقة. ومع ذلك، نستخدمها كتعليق على الأدلة المقدمة بواسطة أدوات أخرى. والمصدر الثالث هو تحليلات واستنتاجات متناثرة في مجموعة ضخمة من الأبحاث التي أُجريت في القرنين العشرين والحادي والعشرين حول الترجمة العربية زمن المد الإسلامي، وهذه الأبحاث مهمة لأن المستعربين اليونانيين قاموا بتحليل ومقارنة الترجمات العربية ومصادرها بالتفصيل. غير أنهم لم يولوا الاهتمام الواجب لأهم سمة في الترجمة العربية، وهي أنها تضيف فكرا جديدا إلى الترجمة.

من خلال اتخاذ المنطقة العربية واللغة العربية نقطتي انطلاق، يكتسب الكتاب جزءا من أهميته، إذ يناقش الترجمة في مناطق لا يُعد إسهامها في دراسات الترجمة هو الأكبر. ويقترح كثير من العلماء مؤخرا دراسة الترجمة في أجزاء مختلفة من العالم لوضع نظرية للترجمة على أسس أكثر شمولية وصلابة وللحد من المركزية العرقية

«ethnocentrism» في دراسات الترجمة[1]. وأضيف إلى هذه الاقتراحات أن دراسة الترجمة في فترات زمنية مختلفة يمكن أن تكون أيضا اختبارا جيدا لنظرية الترجمة المعاصرة وممارستها. ومع أن تاريخ الترجمة في أجزاء مختلفة من العالم قد احتل أخيرا بؤرة اهتمام بعض العلماء، لا يزال هناك الكثير مما يتعين القيام به[2].

وعلاوة على ذلك، تعاني نظرية الترجمة من عدم التناسب بين دراسات الترجمة الأدبية من ناحية والترجمة العلمية من ناحية أخرى، وعلى الرغم من

---

(1) في الواقع، كما يقول لوك فان دورسلاير «Luc van Doorslaer»: «لا يمكن تعزيز دراسات الترجمة إلا إذا كان هناك المزيد من الخطاب من الصين وعنها، وكذلك دول شرق آسيا الأخرى، وجنوب شرق آسيا، والهند، والثقافات التركية، والعالم العربي، إلخ».

Luc van Doorslaer, "(More than) American prisms on Eurocentrisms: An interview article," in *Eurocentrism in Translation Studies*, ed. Luc van Doorslaer and Peter Flynn (John Benjamins, 2013), 120.

في مقاله، «Continentalism and the invention of tradition in translation studies» (النزعة القارية واختراع التقليد في دراسات الترجمة)، يثير ديرك ديلاباستيتا (Dirk Delabastita) سؤالا مشروعا للغاية: «إلى أي مدى صُممت نماذج الترجمة المعروفة -لنقل، تلك التي نوقشت في كتاب *Exploring Translation Theories* (استكشاف نظريات الترجمة) لأنتوني بيم (2010)- بحيث لا تتناسب إلا مع ممارسات الترجمة الموجودة في الغرب؟ إلى أي مدى توجد فيها مركزية عرقية يمكن تفنيدها من خلال البحث في الممارسات والنظريات من أجزاء مختلفة من العالم؟».

Dirk Delabastita, "Continentalism and the invention of traditions in translation studies," in *Eurocentrism in Translation Studies*, ed. Luc van Doorslaer and Peter Flynn (John Benjamins, 2013), 30-31.

(2) تشمل الأمثلة جان ديلايل «Jean Delisle» وجوديث وودسورث «Judith Woodsworth»، واللذين يستعرضان في كتابهما «*Translators Through History*» (المترجمون عبر التاريخ)، تاريخ الترجمة في أجزاء مختلفة من العالم مع التركيز على العنصر الفاعل، أي المترجمين أنفسهم، وليس نتاج العملية. يصف إدوين جينتزلر [Edwin Gentzler] في كتابه «*Translation and identity in the Americas*» (الترجمة والهوية في الأمريكتين) نظرية أمريكية ناشئة للترجمة «تتيح الإبداع والحرية والتغيير، ولها علاقة حية بممارسة الترجمة. وهي تثبت وجودها مقابل نظرية الترجمة التقليدية، التي هي في الأساس أوروبية، ومنشغلة باللغات الوطنية والقوانين الأدبية الوطنية، كما أنها تحمل أفكارا ساذجة بشأن العالمية والقدرة على إنتاج المعاني المتطابقة».

Jean Delisle and Judith Woodsworth, *Translators Through History* (J. Benjamins, 1995).
Delabastita, "Continentalism and the invention of traditions in translation studies," 37.
Edwin. Gentzler, *Translation and Identity in the Americas: New Directions in Translation Theory* (Routledge, 2008).

زيادة الاهتمام بالترجمة العلمية مؤخرا، فلا تزال تهيمن على نظرية الترجمة مناقشات النصوص الأدبية والدينية[1]. يـركز هذا الكتاب على الترجمة العربية للعلوم زمن المد الإسلامي وأوائل القرن التاسع عشر. كما هو موضح في الكتاب، تختلف الترجمة العلمية اختلافا جوهريا عن نظرية وممارسة الترجمة المعاصرة لأن الترجمة لم تكن مجرد وسيلة لتوصيل المعنى ولكنها كانت أيضا أداة لإنتاج المعرفة.

وإلى جانب هذا، كانت الترجمة من اليونانية إلى العربية حالة خاصة تتطلب نظريات جديدة لتفسير تحدياتها الفريدة، سواء في الماضي في طريقة أداء المترجمين لعملهم، أو في الوقت الحاضر في النظريات التي يستخدمها الباحثون لدراسة هذه الترجمات. وفيما يتعلق بعملية الترجمة، كانت المشكلة الرئيسة التي واجهها المترجمون في أثناء حركة الترجمة اليونانية العربية هي ندرة المخطوطات. في أغلب الأحيان، كان المترجمون يعملون من مخطوطة واحدة ربما تكون تالفة، وكانوا بحاجة للسفر في رحلات طويلة من مركز تعليمي إلى آخر للحصول على مخطوطة معينة. وفي ظل ظروف العمل هذه، التزم المترجمون بالتفاعل بشكل نقدي مع نصوصهم الأصلية، وتصحيحها، وملء الفراغات الموجودة فيها. حتى عندما كان لدى المترجمين العديد من المخطوطات تحت تصرفهم، كان عليهم القيام بعمل إضافي خاص بالمخطوطات، مثل تجميع مخطوطة واحدة، أو اختيار نسخة واحدة وإدراج جميع الاختلافات في الهامش أو بين السطور. ولم تكن عملية اختيار النسخة عشوائية بل كانت تتطلب قدرا كبيرا من المعرفة الأساسية والتفكير النقدي.

(1) انظر، على سبيل المثال، العدد الخاص من:

The translator, “Science in Translation,” 2011.

وانظر أيضا:

Maeve Olohan, *Scientific and Technical Translation* (Routledge, 2015).
Sue Ellen Wright and Jr. Leland D. Wright, eds., *Scientific and Technical Translation* (John Benjamins, 1993).

وبعد ذلك، كانت هذه المنتجات النهائية تمر برحلة طويلة من النسخ اليدوي وتحرير النسخ والمراجعات قبل أن تصل إلينا. وفي هذه الحالات، تُعرَّف الترجمة بأنها مخطوطة تُعرف بأنها ترجمة وتشمل العمل الأصلي للمترجم وكذلك أعمال المراجعين والمحررين اللاحقين. وتتطلب عملية النسخ اليدوي الطويلة، بالإضافة إلى المراجعات الدقيقة للترجمات، مزيدا من الحذر من الباحث عند فحص استراتيجيات الترجمة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن البيانات المتعلقة بالمترجم الأصلي وقائمة المحررين والمراجعين لا تكون متوفرة دائما، أو تكون، في أفضل الأحوال، محل شك، وهو ما يمثل عقبة أمام دراسة مترجم معين أو فترة زمنية معينة.

وهذا هو السبب في كون رسالة حنين بن إسحق مهمة لتاريخ الترجمة العربية[1]، فهي تُطلعنا على الترجمات التي قدَّمها حنين، وكذلك على المترجمين الأصليين لبعض النصوص التي راجعها حنين لاحقا. وهي أيضا تلقي الضوء على ممارسة الترجمة في ذلك الوقت. على سبيل المثال، تجعلنا رسالته ندرك أن مراجعة الترجمات القديمة كانت ممارسة شائعة، وتشير إلى صعوبة إسناد ترجمة لمترجم معين. على الرغم من أن هذا كان يمثل عقبة أمام أبحاث الترجمة العربية زمن المد الإسلامي فإنه لا يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لهذا الكتاب لأنه يبحث في الخصائص المشتركة للترجمة العربية، بغض النظر عن هوية المترجم أو الفترة الزمنية.

بالإضافة إلى الافتقار إلى البيانات الآمنة وتلف المخطوطات المستمر، فإن العديد من النصوص الأصلية لم تعد موجودة اليوم، مما يعيق المقارنة بين النصوص الأصلية وترجماتها، لا سيما تلك المترجمة من اللغة السريانية الوسيطة. وعلاوة على ذلك، لا يزال العديد من المخطوطات الموجودة اليوم غير منقح، ولا تزال هناك أدلة كثيرة مدفونة فيها. وعلى الرغم من ذلك، فإن المخطوطات المتاحة كافية لإثبات ممارسة ترجمية فريدة من نوعها، ما لم تتأثر بفهمنا لنظرية الترجمة اليوم، تقدم مصدرا ثريا لفهم عملية الترجمة وأثرها على الثقافة.

---

(1) حنين بن إسحق، *رسالة حنين بن إسحق* (إيران: مطالعات إسلامي، 1949).

نظرة عامة

يغطي **الفصل الأول** الخلفية التاريخية لحركة الترجمة اليونانية العربية ويصف الإرهاصات الأولى للحركة التي ظهرت في عهد الأمويين حتى بلغت ذروتها في عهد المأمون زمن العباسيين. خلال ذلك الوقت، كان من الواضح أن دعم السلطة كان بالغ الأهمية لنجاح الحركة. وعلى الرغم من ذلك، فإن حركة الترجمة اليونانية العربية معقدة للغاية بحيث يصبح من الصعب أن نعزو نجاحها إلى عامل واحد، خاصةً مع عدد لا يُحصى من العوامل التي أثَّرت عليها بشكل غير مباشر. على سبيل المثال، كانت الاهتمامات البحثية القوية للعلماء المترجمين الذين كانوا يسعون دوما لمواصلة التعلم المتقدم ذات أهمية بالغة لنجاح واستمرار حركة الترجمة. وعلاوة على ذلك، كانت الترجمة كإبداع تتطلب جوا من الحرية الفكرية يمكن فيه للأفكار أن تتوسع وتتطور. ومن هنا أدت الترجمة في العصر العباسي الذهبي إلى بلورة أفكار لم تكن بالضرورة متوافقة مع أيديولوجية المجتمع المسلم.

ويصف **الفصل الثاني** كفاءة الترجمة العربية بناءً على التحليل اللغوي لبعض الترجمات والاستنتاجات المتضمنة بالفعل في أبحاث أخرى. كان البحث أكثر سمة فريدة ميزت كفاءة الترجمة العربية زمن المد الإسلامي. كان معظم المترجمين علماء، وكانت الترجمة جزءًا من مشاريعهم البحثية. وقد سهَّل ذلك تفاعلهم النقدي والإبداعي مع النص الأعجمي. وتشمل المكونات الأخرى لكفاءة الترجمة حل المشكلات واتخاذ القرارات والترجمة كعملية تطويرية.

وينقسم **الفصل الثالث** إلى قسمين رئيسيين. يصف القسم الأول الاستراتيجيات التي استخدمها المترجمون العرب في أثناء التفاعل الإبداعي مع النصوص الأعجمية. ويجوز تصنيف بعض هذه الاستراتيجيات كأعمال خاصة بالمخطوطات مثل اختيار نسخة نصية، وتصحيح خطأ في المخطوطة، وحذف الفقرات الزائدة عن الحاجة وغير الأصلية. وتشمل الاستراتيجيات الأخرى إضافة كتابة أصيلة مثل إضافة معلومات لملء فراغ في المخطوطة، وإعادة صياغة المحتوى، وإضافة فكرة جديدة إلى الترجمة. أما القسم الثاني فيقدم نموذجا لتحليل الترجمة العربية زمن المد الإسلامي ويُعرِّف الترجمة

بأنها عملية دمج توسِّع فيها الترجمة النص الأعجمي وتحوله إلى أداة لإنتاج المعرفة في الثقافة المنقول إليها.

ويدعم **الفصل الرابع** فرضية الكتاب من خلال تقديم مثالين فشل فيهما التفاعل الإبداعي مع النصوص الأصلية؛ لأن المترجمين كانوا يفتقرون إلى المعرفة الأساسية بمحتوى النص الأصلي. لم يُترجَم كل من (عن الشعر) و(عن البلاغة) إلى العربية من قبل، ولم تكن لدى المترجمين معلومات أساسية عن المسرح اليوناني. ونتيجة لذلك، لم تُطرَح ترجمات مُرضية للعديد من المصطلحات المتعلقة بالمسرح اليوناني. ومع ذلك، فقد تُرجمت تلك الأجزاء من الأطروحات التي تتناول المنطق بنجاح، حيث كان المترجمون والمفسرون من بين كبار علماء المنطق في عصرهم. وتُعتبر ترجمات الشعر والبلاغة أمثلة جيدة على كيفية تأثر التفاعل النقدي والإبداعي مع النصوص الأصلية بشكل كبير بتوافر المعلومات الأساسية.

يسعى **الفصل الخامس** إلى تحقيق هدفين: أولهما دعم فرضية الكتاب من خلال تقديم مزيد من الأمثلة من تخصص شقيق، نقصد بذلك إرث الحواشي والهوامش. مستعرضا موقفين تجاه النص الأصلي حسبما يمثلهما اثنان من الشُّرَّاح: ابن سينا (ت 427 هـ) الذي رأى دوره في إعادة تشكيل النص الأصلي؛ وابن رشد (ت 595 هـ) الذي اعتقد أن أفضل نهج هو الإخلاص للنص الأصلي. وهذان النهجان مختلفان في طبيعتهما، لأن الأول يسمح بالنظر إلى النص الأصلي من منظور القارئ، ولذا فهو يحاول تجديد معنى النص الأصلي في سياقه الجديد، في حين أن الأخير يأخذ التقليد باعتباره هدف المترجم أو الشارح النهائي. أما الهدف الثاني فيشير إلى أن التفاعل الإبداعي يكون أحيانًا وجهة نظر شخصية. وهكذا، عندما بدأت حركة الترجمة في أوروبا، فضَّل المزيد من مترجمي اللاتينية النهج الحرفي «literalism» تجنبا للاضطهاد. وقد نوقش هذا الأمر بمزيد من التفصيل في **الفصل السادس**، الذي يوضح كيف تلاشى التأثير العربي وأصبح النهج الحرفي الكهنوتي إزاء النص الأصلي هو النهج الأكثر ملاءمةً في أوروبا. وتوقف الشعراء والفلاسفة الرومان عن التفاعل مع النص الأصلي بسبب وجود اعتقاد شائع بأن ترجمة النصوص الدينية يجب أن تكون كلمة مقابل كلمة حتى لا يتأثر

المعنى الإلهي للنص. لذلك صارت الترجمة (كلمة مقابل كلمة) حصرية للترجمات الدينية، في حين استخدمت الترجمة (معنى مقابل معنى) للنصوص الأخرى. ومع ذلك، في كلتا الحالتين، لم تحظ الإضافات الإبداعية في الترجمة بالقبول.

يمكن تقديم تفسيرين لاختفاء أهم سمة ميزت الترجمة العربية، ألا وهي التفاعل الإبداعي مع النصوص الأصلية من خلال تحسينها وإضافة المعلومات إليها. عندما بدأت حركة الترجمة في أوروبا في القرن الثاني عشر، حاول مترجمو اللاتينية الأوائل التفاعل بشكل إبداعي مع النصوص التي يترجمونها مثلهم مثل المترجمين العرب، وكانت هناك روايات عن أساقفة شجعوا مترجميهم على القيام بذلك. ومع ذلك، كانت الكنيسة ترتاب من الترجمات التي تتحدى سلطتها، وعانى عديد من المترجمين من الاضطهاد بسبب تفاعلهم مع النصوص الأصلية. كان من مصلحة المترجمين أن يترجموا بشكل حرفي، لا أن يتفاعلوا بشكل نقدي أو إبداعي مع مصادرهم ويدعوا بأن أي أفكار في الترجمة التي قدموها كانت خاصة بالمسلمين. وهكذا كان هذا المكون المهم ضحية للقمع واختفى من ممارسة الترجمة، وهذا هو التفسير الأول. أما التفسير الثاني فيكمن في أن تجاهل هذا المكون من مكونات الترجمة العربية قد مكَّن المستشرقين الذين درسوا الترجمة اليونانية العربية من الادعاء بأن دور الترجمة العربية كان الحفاظ على المعرفة اليونانية حتى طورتها أوروبا. وتدعم هذا أيضا روايات خلال حركة الترجمة اللاتينية المبكرة كان مفادها أن بعض المترجمين العرب كانوا يحذِّرون بعضهم البعض من بيع وثائقهم للمترجمين اليهود والمسيحيين لأنهم يترجمون هذه الوثائق وينسبون المعرفة الجديدة لأنفسهم.

يحاجّ **الفصل السابع** بأن لحظات الإبداع في الترجمة ليست قاصرة على النصوص العلمانية. لقد مر القرآن والكتاب المقدس بهذه اللحظات على الرغم من كل أنواع الرقابة. ومن أمثلة المترجمين الذين تفاعلوا بشكل نقدي مع الكتاب المقدس جون ويكليف (John Wyclif)، ويان هوس (Jan Hus)، ومارتن لوثر (Martin Luther)، وويليام تينديل (William Tyndale)، ولم تكن ترجماتهم منفصلة عن واقعهم الاجتماعي. وخلال حركة الترجمة اليونانية العربية، كانت ترجمة الكتاب المقدس

إلى العربية أيضا انعكاسا للواقع الاجتماعي للمسيحيين في الشرق. لقد استخدموا مجموعة متنوعة من الأساليب لتحقيق هدفهم، سواء استبدال لغة قديمة أو تقديم الكتاب المقدس إلى جمهور جديد. وفي شبه القارة الهندية، تأثرت ترجمة القرآن بحركات الإصلاح التي ظهرت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كان هدف مترجمي القرآن في ذلك الوقت هو إزالة الغموض عن قراءات القرآن وتفسيرها بشكل منطقي. ولأن هذه الدوافع كانت تحركهم، خرجت إلى النور أول ترجمة إسلامية للقرآن مُرتبة ترتيبا زمنيا، جمعت علماء الشرق وعلماء الغرب. ويشير الفصل السابع إلى أن دراسة تطور ترجمة الكتاب المقدس ضروري لفهم كيف تغيرت الترجمة من التفاعل الإبداعي مع النص الأصلي إلى مجرد نسخة من النص الأصلي، حيث يمكن أن يوصم أدنى تغيير باتهامات بالهرطقة.

يعيدنا الفصل **الثامن** مرة أخرى إلى الشرق الأوسط. في أوائل القرن التاسع عشر وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شهدت مصر حركة ترجمة قوية ظهرت كجزء من مشروع محمد على للتحديث. أكشف في هذا الفصل عن أن حركة الترجمة المصرية هي مرحلة انتقالية بين حركة الترجمة العباسية وممارسة الترجمة المعاصرة لأنها تجسد سمات كل منهما. مثل مترجمي حقبة المد الإسلامي، تفاعل بعض المترجمين بشكل إبداعي مع نصوصهم الأصلية، حيث أضافوا إليها أفكارا جديدة. أعطى البعض الآخر الأولوية للمحسنات البديعية، حيث اختاروا العناوين المقفاة وعملوا على توظيف مراجع لغوي لضمان الدقة. وتتضح أوجه الشبه والاختلاف بين حركتي الترجمة من المقارنة بين إسحق بن حنين ورفاعة الطهطاوي، بالإضافة إلى مجموعات المهارات والمعرفة لدى الفئة الأوسع من المترجمين خلال العصر العباسي وأوائل القرن التاسع عشر.

يناقش الفصل **التاسع** الترجمة العربية المعاصرة. يمكن وصف التغيير الرئيسي الذي حدث في الترجمة العربية خلال القرن التاسع عشر بأنه «تحول لغوي للترجمة العربية» تأثر بالتطور اللغوي في أوروبا. إلى جانب الإيمان بالكلمة المطبوعة باعتبارها كلمة مقدسة، تحولت الترجمة إلى نشاط لغوي محض منفصل تماما عن واقع العالم

العربي. لا يقتصر الأمر على منع المترجمين العرب من أي تفاعل إبداعي مع النص الأجنبي، ولكن كانت المستويات العالية من الأمية واستخدام اللغة العربية العامية كوسيلة للتواصل والتفكير أمورا قللت من تأثير الترجمة إلى الحد الأدنى.

وفي ختام الكتاب، أزعم أن حركة الترجمة العباسية لا يمكنها تفسير النهضة الإسلامية إذا ركزنا فقط على عدد وجودة الترجمات. كانت عملية فحص وتدريس وتعلُّم النصوص الأجنبية قد بدأت بالفعل في الدولة الإسلامية قبل حركة الترجمة. ما خلق التغيير، إذن، هو طريقة التفكير في المعرفة التي جلبتها الترجمة في العصر العباسي ونهج التعامل معها. يقول أديلارد الباثي (Adelard of Bath) في كتابه «Questiones naturales» (المباحث الطبيعية): «أولئك الذين يُعتبرون مرجعيات وصلوا لأول مرة إلى هذه المكانة بفضل استخدام العقل. استخدم العقل أولًا، ثم أضف المرجعية، لأن المرجعية وحدها لا يمكن أن تجلب الاقتناع للفيلسوف». ويعلق أنطوني بيم (Anthony Pym) على هذه العبارة بقوله: «كان من المحتم النظر إلى الترجمات من العربية على أنها أكثر من مجرد أسلحة تُستخدم ضد العرب، وكان يمكن أن تصبح أسلحة ضد السلطة المسيحية نفسها». يجادل هذا الكتاب بأن طريقة ممارسة الترجمة في العصر العباسي هي التي ساهمت في ظهور الكتابة الأصيلة والإبداعية. ومن ثم، فهو يعرِّف الترجمة بأنها مزيج من المعارف، وليست مجرد نقل للمعارف.